# المبحث الثاني
# تصدي نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وسياسته في ضم دمشق

كان نور الدين محمود مُنذ توليه الحكم وهو في الثلاثين من عمره واضح الرؤية والهدف مُنذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرَّب كل منهما يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة الرها التي تشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية فتمكّن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمَّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد فأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في خضم الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية - والنشاط الثقافي العلمي التربوي - التي تخدم توحيد الصف والهدف [١].

**أولاً: القضاء على تمرد ثورة الرهاويين:**

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها، ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماة، وفي الشرق حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمّها عماد الدين زنكي من ديار بكر وفي شمال الشام مضى ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كبيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها، ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى، فاصطدم بها وحّرر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على أرتاح [٢]، قبل أن يعود إلى حلب [٣]. وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر، إلا أنه أعدّ خطة لإعادة احتلال الرها [٤]. ولعل جوسلين الثاني هذا كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين

(١) صلاح الدين بين التاريخ والملحمة الأسطورية ص ٢٨٥ ص ٢٨٦ تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٢.
(٢) أرتاح: اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣.

زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين في حياته وهو العمل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها، إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حققَّه والدهم [١] والأهم من ذلك الأثر المعنوي السلبي الكبير في نفوس المسلمين لم يكن بقلعة الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة وكانوا شديدي الميل للصليبيين ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي وطرد المسلمين من المدينة ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على التمرد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة [٢]، وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمَّماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها وسانده بلدوين حاكم مرعش [٣] وكيسوم، في حين رفض ريموند بواتييه، حاكم أنطاكية، تقديم المساعدة [٤]. ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة[٥] وكان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية الإسلامية ويهاجمها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم، فاستعدَّت لصدِّه. وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة، شهر ربيع الآخر عام ٥٤١هـ شهر أيلول عام ١١٤٦م ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة وقد احتمت بها الحامية الإسلامية[٦].

وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة ولما كانت قواته قليلة العدد لا يمكنها اقتحام القلعة، استنجد بأميري أنطاكية وطرابلس والوصية على عرض مملكة بيت المقدس وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية عدّ صاحب نور الدين محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية فخرج من حلب في شهر جمادي الآخرة/شهر تشرين الثاني على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة [٧]، وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة، واتخذ طريقه صوب الفرات [٨]. لكن هذه العملية لم تتم بسهولة فقد طارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر [٩].

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٢) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم معجم البلدان (١٠٧/٥).
(٣) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٣.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٥٤.
(٧) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٤.
(٨) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.
(٩) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.

خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكن من النجاة ووقعوا تحت ضربات المسلمين [١]، وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها النصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلَّى جوسلين الثاني عنهم [٢]، فقد أراد نور الدين أن يجعل من عصيان الرها وتمردها درساً للآخرين فأباحها لجيشه وسبى أهلها وأجلى من كان بها من الفرنج وكانت الأخبار قد وصلت إلى الموصل بعصيان الرها وعودة جوسلين إليها، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لاستعادتها ولكن هذا الجيش رجع قبل وصوله للرها عندما علم باستعادة نور الدين للمدينة، وأقر سيف الدين غازي أخاه نور الدين في عمله [٣].

وكانت حادثة عصيان الرها واسترجاعها من قبل نور الدين محمود مع ما رافق ذلك من نهبها وسبي أهلها وقتل الغالبية من جيش جوسلين أثناء هربه منها، ثم سكوت سيف الدين غازي عن احتلال أخيه نور الدين محمود للمدينة كان كل ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجة الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، الذين فرحوا بوفاة عماد الدين زنكي وزوال خطره، ولكنهم أدركوا أن ابنه نور الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه ثم تعززت خيبة الأمل لدى أولئك الأعداء بعد التقاء سيف الدين غازي بأخيه نور الدين محمود واتفاق الأخوين على التعاون فيما بينهم ضد الطامعين بملك أبيهم وملكهم [٤].

وهذا أول فتح لنور الدين، رحمه الله، وفيه يقول ابن منير من قصيدة:

**تلك بكرُ الفتوح فالشام منها ::: شامه والعراق بعد عِراقُهُ**

وقال ابن القيسراني:

**فإن يك فتح الرُّها لُجّة ::: فساحلها القدس والساحل**
**فهل علمت علم تلك الديار ::: أن المقيم بها راحل[٥]**

**– مساندة نور الدين لحاكم دمشق في حوران:**

في عام ٥٤١هـ/ ربيع عام ١١٤٧م خرج التونتاش أمير بصرى وصرخد في إقليم حوران، على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في (شهر تشرين الثاني عام ١١٤٢م) وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة وبخاصة أنه قدم إليهم في شهر ذي الحجة عام ٥٤١هـ/ شهر آيار عام ١١٤٧م عرضاً سخياً يتضمَّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران [٦]، وتردد بارونات بيت

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٢.
(٤) الباهر ص ٨٧ دور نور الدين في نهضة الأمة ص٩٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٧٧/١).
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٧.

المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

**الأول**: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة [١].

**الثاني**: أنهم أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران. استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية غير أنه أراد أن يتجنَّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يذكر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهم وبين حكّام دمشق والذي يعود على الجانبين بالفائدة ويحذِّرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين محمود مما يعرِّضهم لخطر جسيم وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهِّزت لمساندة التونتاش. والواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود [٢] إلا أن الصليبيين لا عهود لهم ولا مواثيق فقد هدد الفرنج دمشق ووصل جيشهم بقيادة ملك القدس إلى أطراف حوران، فاضطر معين الدين أنر مقدم العساكر في دمشق والحاكم الفعلي إلى الاستنجاد بنور الدين الذي بادر بنفسه للمساعدة وتقابل مع أنر بالقرب من بصرى للتصدي للفرنجة الذين فوجئوا بظهور نور الدين محمود مع معين الدين أنر واضطروا للانسحاب جنوباً ومؤخرات جيشهم تتعرض لغارات المسلمين حتى عبروا نهر الأردن [٣] وتحسنت العلاقات بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد ذلك، وتوثقت أكثر بزواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين، ورافق هذا الزواج إعادة مدينة حماة التي كان معين الدين أنر احتلها بعد مقتل عماد الدين زنكي إلى نور الدين محمود [٤]. في السنة التالية ٥٤٢هـ/١١٤٨م تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على عدة حصون ومواقع تتبع لإمارة أنطاكية منها أرتاح وباراه، وكفر [٥] لاثا وجميع هذه المواقع والحصون كانت من أعمال حلب سابقاً استولى عليها الفرنجة خلال فترة مدينة حلب وتوسع الإمارات الفرنجية في بداية القرن، ويلاحظ أن نور الدين محمود وضع في قمة أولوياته إبعاد الخطر الفرنجي عن مدينة حلب، وهذا يعني التركيز على إمارة أنطاكية وتجريدها من كل ما استولت عليه في الماضي من الحصون والمواقع والبلدان التابعة لحلب حسب منهجه في ترتيب أولوياته فقد أخذت الأخبار تتوارد من القسطنطينية وآسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م[٦]، واحتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين. وأخذت

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٧.
(٣) عيون الروضتين (٢٠٢/٢، ٢٠٣).
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩.
(٥) زبدة حلب (٢٩١/٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣.
(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣.

الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل[١].

**ثانياً: الحملة الصليبية الثانية:**

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذانا بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار [٢] وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها [٣] وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي نفس الوقت كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام ٤٩٠هـ/١٠٩٥م أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى [٤]، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا دعوة البابا وخرجا كل بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى [٥].

**١ – السلاجقة في آسيا الصغرى يقضون على الجيش الألماني:**

كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقية نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرَّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعرَّض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر والواقع أن القتال لم يكن سوى

(١) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧١.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٤.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٤.

مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه [١]، حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم [٢]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، ظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور [٣] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيئ على الحملة الصليبية الثانية [٤].

**٢ – سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي:**

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور [٥] وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته [٦] وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتَّخذها الملك الفرنسي فقد فأجاه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذاك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم ينُجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان [٧] ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفى الإمبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي [٨]، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق [٩].

---

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٦.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٧.
(٤) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(٧) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٧.
(٨) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٥.
(٩) المصدر نفسه ص ٩٥.

**٣ – الهجوم الصليبي على دمشق:**

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين آبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاونا معهم [١]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لم علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي [٢]، كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية - وتحليلها بعمق ثم - يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلة وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام ٥٤١هـ/١١٤٦م والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م، على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكة معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة التي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين [٣] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق [٤]. لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى والحالي في الحملة الثانية والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي

(١) المصدر نفسه ص ٩٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٦.
(٣) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان ص ٥٢٣.
(٤) نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ص ٢١٢ - ٢١٣.

والسيطرة عليه كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام وأنهم لا يميَّزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم، المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لابد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له كحلب تماماً وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الإستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار [١].

**٤ – موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية:**

أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها - في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوف وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة تحتاج مراجعة بالمسؤولين عن إمارة أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث ٥٤٠هـ - ٥٤٨هـ/١١٤٥ - ١١٥٣م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين وبادر البابا يوجنيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعى أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات ولما لم يبد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد - رئيس دير كليرفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رانسيمان، فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا ييوجينيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص١٥١.

القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى [١]، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال ٥٤٠هـ/مارس ١١٤٦م يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلبانا، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة [٢] وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في الناس ومدى طاعة الناس لهم - في ذلك الوقت - فيقول فيها: لقد أمرتم، فأطعتم، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزوجهن أحياء [٣]. وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها [٤]، واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبؤته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره [٥].

**٥ – انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية:**

في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألف إلى حماة، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجَّ الناس والنساء والأطفال - مكشوفي

(١) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (٤٠٧/٢ - ٤٠٩).
(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ٢٥٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٥.
(٤) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ٢٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[١] وقال تعالى{**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**} (النمل، آية:) وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها [٢]، قبل حكام القدس عرض معين الدين أنر، وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي (ملك الشرق) [٣]، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، انسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا [٤]. وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية (بعد حاكم دمشق) فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه الأكبر وأقوى الإمارات الفرنجة (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال [٥].

(١) شذرات الذهب (٦/٢١٩).
(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٢/٢٥٥).
(٣) الباهر ص ٨٩ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٦.
(٤) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٩٦.
(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٧.

**٦ – مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق:**

لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام ٥٤٣هـ/١١٤٧م للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبد الرحمن الحلحولي [١] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً - خرج راجلاً، فرآه معين الدين - حاكم دمشق - فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله. يعني قول الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}** (التوبة، آية: ١١١) وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قتل رحمه الله شهيداً [٢]. واستشهد الشيخ الحلحولي بعد قتال واستبسال [٣] ورؤي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين [٤].

**٧ – ما قيل من شعر:**

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

**عَـرِّجْ علـى نَجْـد لعلّـكَ مُنْجِـدي ::: بنسـيمها ويـذكر سُـعْدى مُسْـعِدي**
**مـن قاتـل الإفـرنج دينـاً غيـره ::: والخيـلُ مثـل السـيل عنـد المشـهد**
**ردَّ الأمـانَ بكـلَّ نِـدْب باسـل ::: ومـن الجيـاد بُكَّـل نهـد أجْـرَدِ**
**ومـن السـيوف بكـلَّ عَضْـب أبـيض ::: ومـن العَجَـاج بكـلَّ نقـع أسـود**
**حتـى لـوى الإسـلام تحـت لوائـه ::: وغـدا بحمـد مـن شـريعة أحمـد** [٥]

**ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:**

هناك مجموعة من النتائج تمخضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

**١ – أججت العداء الغرب أوروبي:** تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ أن المعاناة التي لقيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطية أكد العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طول القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري.

---

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٢٥.
(٢) أخبار الروضتين (١/١٩٠).
(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٧.
(٤) أخبار الروضتين (١/١٩١).
(٥) أخبار الروضتين (١/١٩٣).

**٢ – أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي** في الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي إستراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء، أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة من احتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي [١]. وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

**٣ – عجز الكيان الصليبي بإمكاناته** المحلية عن تغيير واقع عام ١١٤٤/٥٣٩م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة، أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

**٤ – بروز نجم نور الدين محمود**: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا إنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث [٢]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس [٣].

**٥ – ضعف حكام دمشق**: والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق [٤].

**٦ – تدمير حصن العريمة**: استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ومعين الدين ضد أحد أمراء الفرنجة

(١) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.
(٢) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٥.
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٥.

الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس نزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه وأسرا كل من كان فيه ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهما إلى مدينته [١]، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيئ الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي [٢].

**٧ – كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين:** يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي - المسيحي، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي [٣] هذه هي أهم النتائج.

**رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق:**

كان نور الدين يحاول التقرب من أهل دمشق وكسب ثقتهم ويستغل كل فرصة تحقق له ذلك سعياً منه لتحقيق هدفه الرئيسي بضم دمشق دون حرب، وقد وصلته أخبار في نهاية عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م عن أعمال نهب وتخريب يقوم بها الفرنجة في مناطق حوران التابعة لدمشق دون أن يردعهم أحد [٤] وكان المطر قد انحبس حتى ذلك الوقت وعانى الناس من القحط، فتوجه نور الدين بجيشه حتى وصل بعلبك، وراسل مجير الدين آبق حاكم دمشق، يقول له: إنني ما قصدت بنزولي

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٨.
(٣) السقوط ص ١٣٦.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٠٠.

هنا طلباً لمحاربتكم، وإنما دعاني لهذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبَذْلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولابد من المعونة بألف فارس تجرَّد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة [١]. فهذه الكلمات خرجت من قلب مكلوم، يرى الفرنج يتداعون على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وأولو الأمر يقفون مكتوفي الأيدي، فلا يذبون عن أمتهم، ولا يدافعون عن رعيتهم، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم، فكان لابد وأن يتحرك الأبرار الشرفاء. إن نور الدين في هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه في الإسلام، وأن الذي دفعه إلى الخروج، والنزول حول دمشق، هو إغاثة المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج، ولا طاقة لهم في دفعهم، مع قعود مجير الدين صاحب دمشق عن نصرتهم ابتغاء مرضاة الله وقياماً بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به، كما أنه لا يحل لمسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم، ولا ينصرهم وفي هذه الرسالة يرسي نور الدين معالم على طريق التحرير لعل حكام المسلمين يعون ما فيها، حينما يذكر أن التمكين في الأرض نعمة، وكثرة المال، وكثرة الرجال نعمة، تستحق الشكر لله عز وجل، وتوظيفها في طاعة الله عز وجل، أي لابد هنا من توظيفها في الجهاد في سبيل الله، ولا يحل لمسلم أعطاه الله هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه في الإسلام ومجاهدة الأعداء، لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدة إخوانه سكان دمشق [٢].

كان الجواب الذي تسلمه نور الدين من حاكم دمشق: ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوفنا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا [٣]، قرر نور الدين التوجه إلى دمشق ومحاصرتها ولكن أمطاراً غزيرة جداً سقطت واستمرت أسبوعاً، فغير رأيه حقناً لدماء المسلمين، ولهج أهل دمشق وحوران بالدعاء له واعتبروا نزول المطر ببركته [٤]، وقرّر نور الدين أن يستولى على المدينة بطريقة سلمية، وكان هذا القرار يتناسب مع عقيدة نور الدين محمود وطبيعته، فهو يكره سفك دماء المسلمين ويبذل قصارى جهده ليتجنب قتال المسلمين وعُرف عنه قوله: إني أرفّه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم، كانت خطة نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور:

**المحور الأول**: يتمثل العمل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٠٠.
(٢) الطريق إلى البيت المقدس د. جمال عبد الهادي ص ٨٣.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨، ٣٠٩.
(٤) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين ص ١٠٠.

الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء وبالمقابل إبراز ما ينتظرهم نور الدين محمود، وكانت القواعد والأسس اللازمة لمثل هذه الحملة متوافرة وموجودة أصلاً من خلال الواقع الذي يعيشه أهالي مدينة حلب وغيرهم، من رعايا نور الدين محمود، ومن خلال ما تناقله الناس عن عدله وحسن سيرته وجهاده ولكنه أراد أن يخصَّ أهل دمشق بمزيد من الاهتمام والرعاية في هذا المجال فكان يوصي جنوده في كل مرّة يدخل فيها أراضي الإمارة أن يحسنوا معاملة الفلاحين ومن يلقونهم من أهالي دمشق وألا يحدثوا أية أضرار في الممتلكات والمزارع، وعندما علم باعتداءات الفرنجة على حوران (جنوب دمشق) وقتلهم للمسلمين وسبيهم للنساء والأطفال ونهبهم للمواشي، دون خروج حاكم دمشق لدفعهم، بادر بالتوجه بجيشه إلى دمشق، وعندما اقترب من المدينة... وأرسل إلى حاكمها الرسالة الآنفة الذكر وعندما علم نور الدين أن حاكم دمشق طلب مساعدة الفرنجة، أجرى تعديلاً على توزيع مواقع قواته للتعامل مع الموقف الجديد. التقى مجير الدين آبق مع قادة الفرنجة وأكد معهم اتفاقه القديم ولكن أدرك فيما بعد عزم نور الدين وتعميمه على احتلال المدينة، فأرسل إليه يطلب الاجتماع به وإعلان الطاعة له، وذكر اسمه في الخطبة وسك اسمه على النقود مقابل بقائه حاكماً على المدينة فقبل نور الدين بهذا العرض، وتم الاجتماع في معسكر نور الدين، وخرج أغلب أهل دمشق إلى معسكر نور الدين ليملأوا عيونهم من طلعة نور الدين [١] وانتهز نور الدين محمود الفرصة فحرص على لقاء العلماء وطلبة العلم وقُراء القرآن وأكرمهم كما أحسن إلى الفقراء والضعفاء وشملهم بعطفه، مما ترك أحسن الأثر في نفوس الناس، ومع أن مجير الدين آبق نقض اتفاقه مع نور الدين وأعاد علاقته بالفرنجة كما كانت في السابق، إلا أن نور الدين كان قد تملك قلوب الرعية في دمشق وحقق نجاحاً كاملاً على المحور الأول من خطته.

**المحور الثاني**: كان العمل يشمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند، وقادة التنظيمات الشعبية [٢]، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب، وكان من أشهر العاملين على هذا المحور القائد المشهور أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقد كان الأخير من سكان دمشق ومن أشهر وجهائها [٣]، بينما كان أسد الدين من أكبر القادة العسكريين العاملين مع نور الدين محمود، فاستغل نور الدين هذا الوضع وأوعز إلى قائده أسد الدين بمراسلة أخيه نجم الدين وتحريضه على الإطاحة بمجير الدين آبق وتسهيل تسليم المدينة لنور الدين بدون قتال في الوقت المناسب، فاستجاب نجم الدين وبذل في هذا المجال جهوداً كبيرة أثمرت في نهاية الأمر حتى أخذ أعيان دمشق يراسلون نور الدين يطلبون حضوره معلنين استعدادهم حصر مجير الدين آبق في قلعة

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٢) الباهر ص ١٠٧ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٣) الكواكب ص ١٢٢ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

دمشق وتسليم المدينة له دون قتال [١]. وهكذا كان النجاح على هذا المحور كاملاً كما هو على المحور الأول.

**المحور الثالث**: كان المحور الثالث من اختصاص نور الدين نفسه، فقد استطاع بخبرته ومقدرته على تحليل النفوس البشرية، النفاذ إلى شخصية مجير الدين آبق وتحليلها، ومعرفة ميوله ورغباته وتعامل معه على هذا الأساس، فأخذ يراسله ويستشيره في أمور المسلمين ويتقرب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، فيكتب له عن بعض أمرائه وقادته بأنهم يراسلونه [٢]، (أي يراسلون نور الدين) فيقبض مجير الدين عليهم أو يجرّدهم من مناصبهم أو يقتلهم حتى لم يبق من كبار قادته وأمرائه من يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال [٣]، وأصبح مكروها من الرعية معزولاً عن الأعيان والوجهاء مجرداً من القادة الأكفاء عندها حانت الفرصة المناسبة وأصبحت دمشق كالثمرة الناضجة فسار نور الدين محمود إليها بجيشه وأوعز إلى أنصاره فيها لتنفيذ ما اتفق عليه، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل وفتحوها أمام جيش نور الدين بينما تحصّن مجير الدين آبق مع من بقي معه من الجند في قلعة المدينة وطلب النجدة من الفرنجة الذين سارعوا إليها ولكن نور الدين كان أسرع منهم فرجعوا خائبين ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين يؤمنه على نفسه وعلى من معه من الجند، ويعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وحقق له نور الدين وعده ولكن أبدله بحمص مدينة بالس على نهر الفرات في الشرق [٤]. وهكذا نجحت خطة نور الدين في ضم دمشق إلى دولته بدون قتال نجاحاً كاملاً - بفضل الله - ثم حنكته السياسية ومقدرته على تأليف القلوب واستمالتها بالإضافة إلى قوة عزمه وتصميمه على الهدف وصبره وترويه في التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب [٥].

ولقد تمكن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام ٥٤٩هـ/أبريل ١١٥٤م [٦]، ويعد ضم دمشق من أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين وقد عده البعض أعظم إنجازاته على الإطلاق وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية [٧]، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً [٨]، وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م أكمل مد النفوذ الصليبي على كافة أنحاء الساحل الشامي من الإسكندرية شمالاً إلى غزة جنوباً؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد

(١) الباهر ص ١٠٧ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥ دور نور الدين ص ١٤٢.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ - ٣٢٨.
(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢.
(٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٤.
(٧) الشرق الأوسط للعريني ص ٢٩٩ الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٨٠.
(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥.

الشام من الفرات حتى بردى في قبضة قوة إسلامية موحدة [١]، وتلك هي المرة الأولى التي توحدت فيها الشام مُنذ العهد السلجوقي وصار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية وفي الجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء [٢].

**خامساً: أهم نتائج ضم دمشق:**

ترتب على ضم دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

**١ –** قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية التي حكمت دمشق مُنذ عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م وآلت هذه الأتابكية بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك فتح الفتوح وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.

**٢ –** صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبَّت أوتاده، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين.

**٣ –** قامت لأول مرة في بلاد الشام مُنذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق، وقد أفزع هذا الصليبيين فعلَّق المؤرخ وليم الصوري قائلاً: كان هذا التغيير مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة، إشارة إلى مجير الدين آبق، قد جرَّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلَّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم [٣]. وفي رأينا أن التغيير المشؤوم بالنسبة لمملكة بيت المقدس هو نفسه التغيير المبارك بالنسبة للمسلمين هو توحد عدة مدن كانت دويلات في دولة واحدة قوية وتوحيد جيوشها المبعثرة في جيش واحد قوي على رأسه قيادة ربانية كنور الدين زنكي استطاعت أن تعطي هيبة وقوة للدولة.

**٤ –** شكل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود، فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمال الشام والعراق، وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكَّن القسم الآخر من دفع خطرهم [٤].

**٥ –** حقَّق ضمُّ دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، بل فاق في

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٥.
(٣) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (٨١٥/٢).
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٨٩.

كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون قد حقَّقوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضمَّ نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردى في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم، على الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نور الدين محمود دمشق (١).

٦ – تحقَّق بضمَّ دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدِّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أضحت بيت المقدس في متناول يده.

٧ – على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة واحدة يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين المتشرذمين، فيما يتعرض له من مناوأة من قِبل أتباعه الطموحين (٢).

٨ – أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدَّد في عام ٥٥١هـ/١١٥٦م الهدنة لمدة سنتين (٣) لم تأخذ نور الدين نشوة الانتصار وعاطفة العوام ولم يتأثر بغرور الانتصار وإنما عالج الوضع بعقلية القائد المحنك واهتم نور الدين بالأمور الإدارية والحضارية والسعي لتعزيز المذهب السني بدمشق وعمارة الاستحكامات وأسوار المدن (٤).

– **ما قيل من الشعر في حصار دمشق عام ٥٤٦هـ:** في عام ٥٤٦هـ حاصر نور الدين محمود دمشق فمدحه ابن المنير بقصيدة يحرضه على حكام دمشق فقال:

**أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ ::: تصديقَ واصفهِ سَراةُ المِنْبَرِ**
**لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ::: والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ**
**يا نور دين الله وابن عماده ::: والكوثر بن الكوثر وابن الكوثر**
**صفَّر بحدَّ السَّيْف دار أشائب ::: عقلوا جيادك عن بنات الأصفر**
**هم شَيَّدُوا صرح النِّفاق وأوقدوا ::: ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المحشر**

إلى أن قال:

**يا أيها الملك المنادِي جُودُه ::: في سائر الآفاق هل من معسر**
**إن القصائد أصبحت أبكارُها ::: في ظل ملكك غاليات الأمهر**(٥)

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٢٨٩.
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٩٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٦٠/١، ٢٦١).

* * *